

الطفل ومعضلة القصور اللغوي في العالم العربي

اعداد : حنفي بن عيسى
أستاذ مساعد مكلف بالدروس بمعهد علم
النفس و علوم التربية لجامعة الجزائر.

1 - من التعليم الى التعلّم :

عندما يستعمل الواحد منّا كلمة ((تعليم)) يتذكّر بأن هذه الكلمة مشتقة من ((علم)) أي وضع علامة، أو أمانة، أو سمة من السمات لتدلّ على المسمّى و تنوب عنه، و ((تغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب و أخفّ و أسهل من تكلف احضاره)) (1). و بهذا الاعتبار، فالمعلّم هو من يضع العلامة اللغوية على الشيء لكي تدلّ عليه. و قد غلب هذا المعنى البيداغوجي على كلمة ((تعليم))، اذ يقصد بها في أكثر الأحيان، العملية التي يتمّ بها نقل المعرفة من المعلّم الى المتعلّم.

و لعل السبب في تغليب هذا المعنى البيداغوجي، و نسيان المعنى الأصلي، هو أن العمل الذي يؤتيه المعلمون في المدارس ينصبّ معظمه على ((التعليم)) أي وضع العلامات أو ((الأسماء)) بأزاء الأشياء التي يأتي بها المعلّم الى قاعة الدرس أو يشخصها أمام التلامذة بوسائل الايضاح، لكي يرتبط الاسم بالمسمّى في أذهانهم و نستنتج من هذا أن التربية اللغوية تحتلّ مكانا بارزا في المدارس. و قد كانت المواد اللغوية في مدارس أوروبا تحظى بالأولوية، حتّى أن المدرسة الثانوية في إنجلترا، كانت - و لا تزال - تسمّى ((مدرسة النحو School Grammar)) كما لو أنّ النحو هو المادة الوحيدة التي تدرّس فيها دون المواد الأخرى.

(1) ابن جنبي : ((الخصائص))، ج 1، ص 44، و المرأة (بفتح الميم) تعني الرؤية.

و لعل سقراط هو الذي سلك بالتربية هذا المسلك حينما قال بأن الحكمة من اطلاق الأسماء هي ارشاد الناس الى وجه الحقيقة الممتثلة في ماهية الأشياء، ظاهرها و باطنها... فالمعلم، حينما يعلمك الاسم، يدلك في نفس الوقت على الحقيقة الكامنة وراءه. و ما كل انسان بقادر على وضع الأسماء، بل ان هذا العمل مقصور على ((المعلم)) الحق، أي المعلم القادر على ادراك ماهية الشيء، اذ ((عن ادراك الماهية نشأت التسمية)) كما يقول ابن جتي.

و هنا لا بدّ من الاشارة الى أن التربية الحديثة تستعيز عن التعليم التقليدي المقيد بالمكان (المدرسة)، و بالزمان (المدة المحددة للدراسة)، أخذت تستعيز عنه بالتعلم غير المحصور في نطاق المدرسة، و غير المقيد بالزمان. و من هنا نشأت فكرة ((التربية المستمرة))، أي التعلم من المهد الى اللحد. و قد تمخّض الفكر التربوي المعاصر عن العديد من المصطلحات التي تشير الى مختلف الأساليب المستعملة لايصال المعرفة و من بينها : التربية المتواصلة : المتناوبة . المدرسية . اللامدرسية . النظامية . اللانظامية . العرضية . القبمدرسية . الشبمدرسية . التفويضية . المعادة . المكررة . المهنية . المكيفة . الشعبية . التربية أثناء الخدمة . الامداد التربوي و التعليمي في عين المكان . الربط بين التعلم و العمل الخ... و هكذا أصبحت الفرصة تتاح لكل انسان، ذكرا أو أنثى، صغيرا أو ناشئا أو راشدا... سويّا أو معوقا، لكي يتعلم بنفسه تعليما ذاتيا، و يختار الزمان و المكان الملائمين له، و ينتقي من البرنامج الفقرات التي تناسبه .

و من أجل هذا كله، فان مفهوم البيداغوجيا (أي فنّ تعليم الطفل) حلّ محله مفهوم الأندراغوجيا (أي فنّ تعليم الانسان) . و ما من شك أن الحديث الشريف الذي يحثنا أن نتعلم ((من المهد الى اللحد)) . هذا الحديث يصدق أول ما يصدق، على تعلم اللغات... و ذلك أن الانسان قد يقضي العمر كله من غير أن يحيط بلغة بني قومه، ناهيك باللغات الحية الأخرى التي أصبح لزاما عليه أن يتعلمها، اذا كان حريصا على مسيرة العصر، و الاطلاع على ما يجد من أفكار، و حماية نفسه من الأخطار، لأن من ((تعلم لغة قوم، فقد أمن شرهم))، كما جاء في الأثر.

و سواء أخذنا برأي المدرسة التقليدية في التعليم، أو رأي المدرسة الحديثة في التعلم، فان الدارس لا يستفيد إلا اذا كان ما يسمعه من المعلم و الأستاذ، و ما يقرأ في الكتب و المجلات، مشجونا بالمعاني و الأفكار. و لعله من المفيد أن نشير الى أن القضايا اللغوية أشبه ما تكون بالقضايا المصرفية. و لذلك أصبح اللسانيون يتحدثون اليوم عن ((رصيد الطفل من المفردات)) كما لو أن هذا الرصيد شبيه برصيد الانسان في البنك. و كما أن الرصيد المصرفي يتعرض للتضخم المالي، أي يفقد جزءا من قدرته الشرائية عندما لا يستظهر الأوراق و القطع النقدية المتعامل بها بين الناس بالاحتياطي الكافي من الذهب أو العملات الصعبة، فذلك المفقودات المتداولة لدى أمة من الأمم تتحوّل في عصور الانحطاط الى مجرد أفاظ تلوّكها الألسنة

عندما تفقد دعائتها الفكرية، أي ركيزتها من الأفكار والمعاني التي هي للثقافة بمثابة الاحتياطي من الذهب للاقتصاد... و كما أن التضخم المالي يفقد العملة ندرتها، و يجعلها رخيصة مبتذلة، فكذا السلوك اللغوي يؤول به الأمر الى نوع من الشرثرة في الكلام، و الشقشة في اللسان و اللغظة الجوفاء في كل ما يكتب أو ينشر.

ان القصور اللغوي الملحوظ لدى الطفل العربي مرجعه في اعتقادي الى زوال العلاقة بين الدال والمدلول... بين الاسم و المسمى... بين المبني و المعنى... بين الأشياء و العلامات اللغوية الموضوعة من أجلها. و هنا لا بد من التمييز بين العلامة Signe و الإشارة Signal. فالعلامة تنوب عن الشيء و تغني عن احضاره أما الإشارة فانها تنوب عن العلامة التي بدورها تنوب عن الشيء. و بما أن الكثير من المفردات المتداولة أصبحت مجرد ألفاظ جوفاء، فانها لا تعتبر علامات لغوية، بل اشارات تحمل طابع الغموض، و توقع في الالتباس.

2 - من التفاهم بالاشارات الى التفاهم بالعلامات :

و مما يدل على التخلف في مضمار الحضارة أن يكون حديث الناس مشحوناً بأسماء الاشارة. و هكذا فان أكثر ما نسمعه من حولنا مليء بأمثال هذه العبارات: ((أعطني هذا... أنظر الى هذه)) . ففي أكثر الأحيان لا نسمي الأشياء بأسمائها، بسبب الجهل و الكسل في البحث عن الصالحة المنشودة، أو الميل للاختصار. و اذا استعملنا العلامات اللغوية (أي الأسماء)، فهذه العلامات لا تقل غموضاً عن الاشارات اذ تعوزها الدقة، و لا تحيط بالموضوع و لا تستوعبه، و الأدهى من كل هذا، أن الغموض متسرب أحيانا الى لغة العلم، حتى أن المعجميين (1) أخذوا يتناولون هـذـة المشكلة بالبحث. و هكذا، فالمدرس - ايثارا للعافية، و لكي لا يتعب نفسه - قد يتحاشى العبارات العلمية الدقيقة، و بذلك تكون معالجته للموضوع سطحية، و نفس هذا الموقف نجده لدى من يدعي الانتماء الى ميدان الأدب و الفكر. فاذا كان يصدد وصف مشهد، و تعداد ما فيه من عناصر، فانه قد يقتصر على ذكر عنصر أو عنصرين، و يضرب صفحا عن بقية العناصر الأخرى لأنه يجهل أسماءها، و لأنه لا يريد أن يكلف نفسه مشقة البحث عن اسمها الصحيح، و بذلك يكون وصفه للمشهد سطحيا للغاية. و بعبارة أخرى فانه يفضل أن يضحي بالفكرة، و أن يطمس معالم الصورة، عوضاً من أن يستحدث أو يبتدع لها ما يناسبها من العبارات و التراكيب و الجمل. و لا يسع الانسان حينئذ إلا أن يتسائل : ما هو دور هذا ((المدرس)) و هذا ((الأديب)) و هذا ((المفكر))، أهو التعليم أو التجهيل؟ أهو التوعية أو التعمية؟ و كيف لا يكون الأطفال و الناشئون من آبنائنا قاصرين لغويا عندما يتتلمذون على يد هؤلاء، أو يقرأون لهم ؟

(1) و من بين هؤلاء : المهندس الدكتور وجيه السمان ، في مقال له عنوانه : " جوانب الدقة و الغموض في المصطلح العربي " .

ينبغي أن نكتفِ نهائيا عن التفاهم بالاشارات، كما يتفاهم الصمّ و البكم... ينبغي أن نسمي الأشياء بأسمائها. أليس الله تعالى يقول: ((و علم آدم الأسماء كلها)) ؟ بلى... الأسماء كلها، بدون استثناء، و لا يجوز لأي كان أن يحرم المواطن العربي من هذا الحق، الدنيوي، المدعم بالبعد الميتافيزيقي: يحق تسمية الأشياء بأسمائها. فلماذا أحجم عن استعمال هذه الكلمة أو تلك، خوفا من أن يقال بأن لغتي ضعيفة و أقرب الى لغة الصحافيين أو العامة. و هل يليق بي أن أضحي بالفكرة التي شغلت بالي، و أن أفقد الصورة رونقها و بهائها، ارضاء لفئة تعتبر نفسها من حراس اللغة و حماتها، على غرار سدنة الكعبة المشرفة ؟ ألا يجدر بي كمدرس و مفكر و أديب، بل كمواطن عادي، أن أساهم في تحرير اللغة من قيودها باستمرار لكي تواكب العصر، و تطابق الواقع و تحيط به احاطة السوار بالمعصم ؟

3 - من التلميح الى التصريح :

و الحقيقة أن الانسان في سلوكه اللغوي يتنازع ميلان متعارضتان :
- ميل للتلميح : فيقتصر على الرموز و الاشارات، و يكون رائده قول الباحثي .
و الشعر لمح تكفي اشارته و ليس بالهذر طوّلت خطبه
- و ميل للتصريح : بكل ما يختلج في ذهنه من أفكار و أحاسيس. ان هذين الميلين يجعلان المتعلم للغة من اللغات يتخذ أحد المواقف الخمسة الآتية، و كل واحد من هذه المواقف يؤثر الى حد بعيد في سرعة التعلم أو بطئه، و في النتائج الحسنة أو السيئة التي يحصل عليها في نهاية المطاف... اذا كان للمطاف نهاية، لأن اللغة بحر لا ساحل له. و مهما أجتهدت، فسوف تفوتك من لغة بني قومك أسرار و أسرار، و سوف تخفي عليك منها لوينات لا يدركها إلا من له ذوق سليم، و حس لغوي مرهف، و اطلاع واسع.

أولا : موقف الرفض :

قد يعتقد البعض أن هذا الموقف السلبي. و الحقيقة أن رفض التعلم قد يكون ايجابيا حين يكون القصد منه هو الدفاع عن الشخصية الوطنية المهددة بالذوبان... و كذلك كان الأمر في أواخر القرن التاسع عشر حينما أتخذ الشعب الجزائري موقف الرفض من كل ما هو دخيل : رفض الثقافة الفرنسية جملة و تفصيلا. رفض اللغة الفرنسية و المدرسة الفرنسية و اللباس الفرنسي و مرافق الحضارة الفرنسية (1)، بل رفض الطبابة الفرنسية، و بالأخص الدخول الى المستشفى (2)

(1) أنظر في هذا الموضوع كتاب المؤرخة الفرنسية ايغون توران "المجابات الثقافية في الجزائر على عهد الاستعمار". Y. Turin : Les Affrontements Culturels en Algerie Coloniale.

(2) أنظر في هذا الموضوع كتاب الباحث محمد بلقج : رفض الطبابة الفرنسية في نواحي قسنطينة - M. Belguedj : Le Refus Medical dans le Constantinois.

و لعل السرّ في ذلك أن اللغة تكتسي في ظروف الخطر طابعا يكاد يكون دينيّا، فتمتزج في ضمير الشعب بكل ما هو مقدّس . و كأني باللغة في الظروف الطارئة التي تهدّد فيها بالزوال، كأني بها تنتقل في ضمير الشعب من الشعور المباشر، لترسب في أعماق النفس البشرية، حيث تمكث هناك، الى أن تتاح لها الفرصة عندما تنقشع الغيوم و تزول الطوارئ، لتبرز من جديد الى ساحة الشعور فتصبح كما كانت : لغة التعامل في مختلف شؤون الحياة، و ان هذا الأمر ليذكرنا بما تفعله الدول عند نشوب الحروب المدمّرة، إذ تعتمد الى ابداع نفائسها و تحفها الفنية المعتبرة من التراث الوطني، في مكان أمين، حتى لا تتعرض للسلب و النهب و الاتلاف و العطب و أي شيء أعزّ و أنفس من اللغة في حياة الأمم ؟

ثانيا : الموقف المحايد :

ان موقف الرفض الذي تحدّثنا عنه يمكن تعليله بما يسمّى في علم النفس "ميكانيات الدفاع Mechanismes de Defense" (1) التي تنطلق في ساعة الخطر، وهذا الموقف قابل للتحويل الى ضدّه، من سلوك الاحجام الى سلوك الاقدام، و يظل في كلتا الحالتين موقفا ايجابيا اذا القصد منه تحقيق التلاؤم و مسابقة الأوضاع نظـمـا للفوائد المرتقبة، و بالفعل، فقد تغيّر موقف المواطن الجزائري في النصف الأول من القرن العشرين، إذ ان الكثير منهم، وخاصة النخبة، أقبلوا على تعلّم الفرنسية، فاتخذوا منها موقفا ايجابيا، أو بالأحرى موقفا محايدا، أي مجردا من العاطفة و الحماس، فاتخذوا لغة المحتلّ الدخيل أداة وظيفية ((أولا، على الصعيد السياسي ثم على صعيد الكفاح المسلّح، علما بأنه لم يكن يوجد عند أبناء المغرب العربي، و لا يوجد عندهم اليوم، أي تجاوب عاطفي مع هذه اللغة التي استعملوها، و لا يزالون يستعملونها، كأداة للتعبير، مثلها في ذلك مثل غيرها من الوسائل المحايدة الوظيفية)).

ان هذا الموقف من تعلّم اللغات الأجنبية نقول عنه بأنه محايد، لأنه مجرد من منصر الحماس، و من الشحنة العاطفية، و هما منصران لا يتوفران الا عندما يقبل الانسان على تعلّم لغة بني قومه . فاذا أقبل على تعلّم لغة أجنبية، فلأنه يعتبرها وسيلة و أداة وظيفية سوف تساعد في أداء عمله على الوجه الأكمل (2).

-
- (1) تعزى ميكانيات الدفاع الى (آنا فرويد)، و من بينها: الكبت، النكوص، الانزواء، الانتباز، الانطواء على الذات، الاسقاط، التقمص، مخالفة الرأي السائد، تصعيد المشاعر في صورة ابداع فني أو أدبي.
- (2) أنظر في هذا الموضوع آراء المفكر الجزائري مصطفى الأشرف، في مقال له منشور في مجلة ((الثقافة)) العدد 41، الجزائر.

عندما تحدثنا عن موقف الرفض، قلنا بأنه لا يخلو أحيانا من عنصر ايجابي عندما يكون القصد منه هو الدفاع عن الأنا، و الحفاظ على الشخصية، سواء كانت شخصية الفرد، أو شخصية الأمة . و لكن موقف الرفض يقتزن في معظم الأحيان بعنصر سلبي يجعل المتعلم أقرب ما يكون الى الفصامي. و من المعروف أن الفصام Schizophrenie مرض نفساني، من علاماته شعور المريض بأنه مقطوع عن العالم الخارجي، فينكمش داخل عالمه الخاص، و ينتبذ، أي يصبح كالمنبوذ. و من هنا التسمية بالفصامي لأنه مقطوع عن القيم التي يؤمن بها عامة الناس، فهو بينهما كالغريب الذي أنقطعت به السبل، و بما أن اللغة تظل، رغم استلاب عقله Alienation هي صلة الوصل بينه و بين المجتمع، فمن المتوقع أن ينالها على لسانه، و في كتاباته، غير قليل من التغيير و التشويه : فهو يحاول أن ينشئ لغة جديدة تقوم على الحذف أحيانا، و على الابتداع أحيانا أخرى. أما قواعد النحو و الصرف، فيضرب بها عرض الحائط، و يستعمل الأسلوب المختصر المجحف بالمعنى (أسلوب البرقيات)، و يرصف الكلمات رصفا بدون ارتباط، و لا يراعي رتبة الكلمة من حيث التقديم أو التأخير أو التوسط. و نجده أحيانا يورد النعوت بدون مبرر و يستعمل كلمة لا شيء سوى لأنها تولف سجعا مع كلمة أخرى، و يتعنت في التلفظ بكلمة طويلة صعبة، و لا يني يكرر في اصراره بعض المفردات أو التعابير كأنها تشكل فيما بينها حلقة لا يستطيع التخلص منها .

أما كتابات الفصاميين فهي مليئة بالصور المعيرة عن الرمزية، يضحي بالمعنى و بالقواعد، في سبيل الجرس الموسيقي و الايقاع السمعي. و لذلك فهو لا يتردد في بتر (قص) بعض الحروف عن الكلمات، و الصاق أخرى بها، و تركيب مفردات تركيبا مزجيا، بحيث يأخذ شقا من كلمة، و شقا من كلمة أخرى، و كل ذلك من أجل احداث الأثر السمعي المطلوب. و من الفصاميين من يتعشق حرفا معينا، فيتعلق به، و يضيفه تكلما و كتابة و قراءة الى جميع المفردات. و قد تنفر نفسه من حرف آخر، فيتحاشاه و يحذفه أينما وجده .

ذلك هو شأن السلوك اللغوي لدى الفصاميين. و لكن الشيء الذي أخشاه أن يكون هذا الداء الوبيل (الفصام) قد سرى الى عقول تلامذتنا، و استفحل أمره فسي الثانويات و الجامعات. فعلم الاجتماع اللغوي يؤكد يوما بعد يوم دور اللغة كأداة للسيطرة الاجتماعية و يشير الى أن كثيرا من الأعمال القيادية في المجتمع المعاصر هي ذات طبيعة لغوية، كالمحاماة، و العمل في القضاء، و التعليم و الاعلام و السياسة الخ... و هذا الأمر يؤكد و يعزز علم النفس اللغوي، حين يشير الى أن قضاء المآرب، و نيل الحقوق، و تحقيق الرغبات، و الوصول الى أعلى الدرجات، كل ذلك مرهون بقدرة الانسان على الاقصاد عن ذاته . و قديما أدركت العرب العلاقة الوطيدة بين الجانب الثقافي و الجانب الاقتصادي : فسوق عكاظ تظاهرة اقتصادية للبيع

و الشراء، و لكنها في نفس الوقت تظاهرة ثقافية، لأنها فرصة شمينة أمام الفصحاء و الشعراء، كي يذيع صيتهم و يرتفع شأنهم بيت القبائل. و لتأمل في قول المتنبي :
و شغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

و كذلك في قول الشاعر الجزائري محمد العيد :

لم يبق لي في الشعر غير بضاعة قد لا تروج بمعرض الأفكار

لنتأمل في هذين البيتين كيف أنهما اشتغلا على مصطلحات لا تستعمل عادة إلا في الاقتصاد : (البيع. السوق. الكساد. البضاعة. الرواج. المعرض).

و هكذا، فما دامت اللغة عاملا قويا من عوامل الانشطار الاجتماعي، و ما دامت المقدرة اللغوية سببا من أسباب انقسام المجتمع الى محظوظين و محرومين، و ما دام القصور اللغوي سببا من أسباب الحيف و الظلم و الحرمان، لذلك لا نستغرب اذا كان رد الفعل عنيفا لدى كل من يشعر بأنه مظلوم بسبب قصوره اللغوي و لنا في عمار الكلي صورة طريفة عن شاعر يتذمر من القيود التي فرضها النحاة، اذ يقول :

ماذا لقينا من المستعربين و من	قياس نحوهم، هذا الذي ابتدءوا
ان قلت قافية بكرا يكون لها	بيت خلاف الذي قاسوه أو ذرعو
قالوا لحنن، و هذا ليس منتصبا	و ذلك خفض و هذا ليس يرتفع

فاللحن اذن سبب من أسباب الازدراء و الاحتقار. و كم من طفل أهين بسبب غلطة نحوية، أو فلتة لسان، أو ركافة في التعبير. و يهان الطفل أحيانا أمام رفاقه فيسبب ذلك لديه عقدا متأزمة، و عندئذ تنشأ القطيعة بينه و بين اللغة التي يعتبرها السبب الرئيسي لكل مشاكله. و لا ننسى بعد هذا أن الحركة الاحتجاجية التي قام بها الطلبة في فرنسا عام 1968، كان من أبرز جوانبها التمرد على القواعد اللغوية و النحوية و الصرفية. و كانت العرائض التي يقدمونها، أو اللافتات التي يلصقونها على الجدران مليئة بالأخطاء المتعمدة، و كل ذلك يجري في عاصمة تعتبر من أهم المراكز الثقافية في العالم.

لا بد من الإشارة هنا الى أن علم النفس اللغوي يؤكد بطبيعة الحال على أهمية التعلم النظامي لقواعد النحو و الصرف. و لكنه في نفس الوقت يلفت الانتباه الى ضرورة اعادة الاعتبار الكامل، لما يسمى ((السليقة)). و في هذا المعنى يقول الشاعر السابق الذكر :

كم بين قوم قد أحتالوا لمنطقهم و بين قوم على أعرابهم طبعوا
يقول الشاعر : كم من فرق بين قوم لا يجدون من سبيل للنطق و التكلم الا بانتهاج السلوك القواعدي، و استعمال الحيل. كم من فرق بينهم و بين قوم مطبوعين، يتكلمون بالسليقة، فلا يخطئون، و اذا سألتهم لماذا نطقت بالرفع لا بالنصب أو الجر، يقولون لك : لا أدري لذلك من سبب واضح. و انما يبدو لي بأنه أوفق للأذن، و أسهل للنطق.

رابعاً : الموقف السحري :

هذا الموقف نجده لدى من يضيف على اللغة الخرافات و الأباطيل، و يمزجها بالمعتقدات الغيبية، و يحيطها بهالة من القدسية . فالسحر يتدخل في قضايا اللغة حينما يعتقد الانسان بأن الاسم و المسمى شيء واحد، و أن التأثير على الاسم سوف يؤدي حتما الى التأثير على المسمى. و الحقيقة أن علاقة اللغة بالسحر علاقة قديمة فقد جاء في الأثر : ((و ان من البيان لسحرا)). و بما أن الاعتقاد السائد هو أن الكلمة أصلها الّهي، لذلك نشأت عن هذا الاعتقاد عقلية خرافية، فصارت الكلمة تتخذ أحيانا لا للتعامل و التفاهم، بل للتأثير في قوى الغيب، كما هو الشأن في كتابة الحروز و التماسم .

و لا شك أن هذا الموقف السحري هو الذي يفسّر لنا كثيرا من أنماط السلوك الاجتماعي. فبعض الشعوب تعتقد أن الاسم جزء لا يتجزأ من كيان المسمى، و لذلك فإن الاطلاع عليه قد يكون فيه مسّ بالكرامة و الشرف. و من الناس من يعتقد أن اطلاع غيره على اسم زوجته أو أخته أو أمّه اهانة . و بعض الأفراد من الشعوب البدائية لا يذكرون أسماءهم للأجانب خوفا من أن يستخدمها هؤلاء في ما يعود عليهم بالشر. و لذلك فللكثير منهم اسمان : اسم يعرفه الجميع، و اسم خاص لا يطلع عليه إلا أفراد القبيلة .

ان اعتقاد الناس منذ فجر التاريخ، بأن الاسم جزء لا يتجزأ من كيان الانسان يفسّر لنا لماذا أصبح الاسم اليوم مرتبطا بسلامة المرء و أمنه . فقد كان الانسان في القديم يعتقد بأن اطلاعه على اسم عدوه سوف يمكّنه من التغلب عليه، و ان معرفته باسم امرأة يحبّها خطوة حاسمة نحو نيل المرغوب منها. و في الواقع، لا تزال السي يومنا هذا نخبي أسماء نساتنا من المحارم، و نوجس خفية من الشرطي عندما يطلب منا الأوراق الشبوتية . و اذا شعر أحدها أن سلامته مهدّدة فإنه قد يبدّل اسمّه، كالشخص الذي ينزل في فندق تحت اسم مستعار، أو يذيل مقالاته باسم مستعار. و يضاف الى هذا أن بعض الظروف الخاصة، كالثورة و اضطراب الأمن، قد أجبرت الكثير من الناس على أن يكون لهم اسمان : اسم حقيقي، و اسم متنكر لا يعرفه إلا من يعمل معهم في المنظمة السرية . و الأكثر من هذا أن الدول تتصرف أحيانا كالأفراد، فتعتمد الى تغيير أسماء البلدان و المدن و الشوارع عندما تنقلب الأوضاع السياسية فيها، أو تقع كوارث طبيعية مثلما حدث في الجزائر التي استبدلت اسم مدينته ((الأصنام)) باسم ((الشلف)) على أثر الزلزال الذي حطّم المدينة برمتها في السبعينات .

و قد يعتمد آخرون، خوفا من العين أو دفعا للشر عن أولادهم، الى تسمية أبنائهم الذكور بأسماء الاناث، أو الى اختيار أسماء قبيحة لهم . و أكثرهم يفعلون ذلك لكيلا يبرزهم الموت في أبنائهم، كما لو أن الاسم القبيح من شأنه أن يحفظهم

من القدر المحتوم . و من الجدير بالذكر أن الشعالي، في كتابه ((فقه اللغة)) عقد فصلا ممتعا تحدث فيه عن ((تسمية العرب أبناءها بالشنيع من الأسماء)).

و لقد نتحاشى ذكر اسم انسان نكنّ له الحقد و الضغينة، كما لا أن مجرد التلغظ باسمه يوسّخنا و يعود علينا بالشرّ. فاذا تحدثنا عنه -على لسان الغائب طبعاً - فاننا نقول عنه : ((ذلك الشخص... لا لزوم لذكر اسمه... أنت تعرفه... ذاك الساقط... ذاك السافل...)). و لقد نمضي على هذا المنوال، و تنتقل من كناية الى كناية، و من نعت الى آخر، من غير أن يندّ اسمه على لساننا. و اذا لم يفهم المخاطب من هو المقصود بهذا التشنيع، فقد نضطر حينئذ الى التصريح باسمه، و لكن لا كما هو، بل مشوّهاً، على أمل أن ينتقل هذا التشويه من الاسم الى المسمى. و كأننا اذ نفعل ذلك نسلط غضبنا و حقدنا على الاسم الذي ناب مناب المسمى في تلقي الشتائم.

و هناك أمر آخر له أثر بالغ في السلوك اللغوي، و هو تحريم ذكر بعض الأشياء أمام فئة معينة من الناس. و ذلك أن الكلمة عندما تذكر في مجلس أو محفل، لا تثير في ذهن السامع معناها فقط، بل تثير أيضا بعض العلاشات و الظروف المتصلة بها، و هي ظروف لا يجدر بمن حسنت أخلاقه و لطفت شمائله أن يجعل الناس يفكّرون فيها. و من ذلك أن الزواج عند كثير من الشعوب مقترن في الذهن بالعلاقات الجنسية، و لذلك فالمرأة لا تدعو زوجها باسمه، بل تتحاشى ذلك، و لا تتحدث عنه في غيابه الا على سبيل الكناية أو التورية، مثل أن تقول : ((هو)) أو ((الرجل)) أو ((عمك))، كما أن الزوج من جهته يتجنّب ذكر اسم زوجته، و خاصة بمحضر أبيه، و يتحايل لذلك بأنواع من الحيل، مثل أن يناديها : ((يا أنت)) أو ((يا امرأة)). و اذا تحدث عنها على لسان الغائب، فهي ((العجوزة)) و لو كانت في ريعان الشباب.

و هناك أحيانا طرائق تعتمد لتجنّب ذكر ما هو مستقبّح. فالمرحاض يتحول الى ((بيت الراحة)) أو ((المستراح)) أو ((بيت الماء)). و نحن لم نسق هذه الأمثلة الا لكي ننتهي الى القول بأن العقلية الخرافية فرضت في مجال الايصال اللغوي كثيرا من المحرّمات Tabous التي تحول دون تسمية الأشياء بأسمائها. و من العجيب أن المجتمع العربي الاسلامي الذي أقرّ منذ عدة قرون المبدأ القائل بأنه ((لا حياء في الدين))، هذا المجتمع آل به الأمر الى هذه الوضعية المؤسفة، حيث يفضّل الناس التلميح على التصريح، و الاشارة الغامضة على العلامة الواضحة، و لا يتحدثون الا بالكنايات و الاستعارات و التشبيهات و الاشارات، و هي كلها أدوات تتخطى الواقع و لا تحيط به و لا تستوعبه. و ما من شك أن هذه الأساليب تناسب لغة الشعر، لأن الشعر كما قال البحري ((لمح تكفي اشارته))... و لكن، ما أحوالنا اليوم في عصر التكنولوجيا، الى لغة العلم : لغة لا يقتصر فيها على التلميح و الاشارة العابرة، بل يعتمد فيها على التصريح الكامل بقصد الاحاطة بجميع العناصر الموجودة في البيئة التي تحتضنها.

و من أجل كل هذه الأسباب، فإن كل تربية، سواء كانت منزلية أو مدرسية... نظامية أو لا نظامية... أن كل تربية تقوم على قتل الكلمة أو تعمل على إجهادها بمختلف وسائل التحريم المانعة من ((الحمل والولادة)) (باعتبار أن الراغب فسي الكلام يحمل هو أيضا همومه وأفكاره و يسعى الى توليدها)... أقول أن كل تربية تقوم على هذا الأساس، سوف يكون لها أوجع العواقب على النمو اللغوي للـطفـل و الناشئين.

و لعله من المفارقات العجيبة أن تكون اللغة العربية من بين اللغات التي تعاني هذه الأزمة الخطيرة. فالعربية سميت بهذا الاسم لأنها من الأعراب، أي الأفصح و البيان. و لكن... أين الأفصح و البيان عندما تقوم التربية المنزلية على إسكات أصوات الأطفال، بدعى أنهم ((صبيان)) و لا يحق لهم أن يتكلموا أمام ((الكبار))، فتعتقد السننهم سنين أو الى الأبد... أين الأفصح و البيان عندما نلاحظ أن البيوت خالية من المكتبة التي تشجع الطفل على القراءة، و أن صوت المرأة لا يزال يعتبر ((عورة)) في المجتمعات العربية، فلا يجدر بها أن تتكلم في المجالس و أن تذيّل مقالاتها في الجرائد و المجلات... أين الأفصح و البيان عندما يفرض الكاتب على نفسه نوعا من الرقابة الذاتية، و يحرم على نفسه ذكر بعض الأمور حرصا على ((سمعته))، أو مراعات شعور فلان، أو تخوفا من الناشر الذي قد يرفض انتاجه، فلا يملك في آخر الأمر الا أن يتخذ أحد الموقفين : اما أن يحطم قلمه نهائيا و بدون رجعة، و اما أن يمارس نوعا من الرقابة على انتاجه، فيسائس و يـدـاري و يحابي ايثارا للعافية، و يبيع كلمته ((في سوق الكساد)) (1).

خامسا : الموقف الإجهادي :

إن المتعلم، إذا ما أستطاع أن يتخلص من هذه المواقف السلبية، و أن يفتح الطرق المسدودة أمام ذهنه و أن يزيل من تفكيره اللغوي ما علق به من معتقادات باطلة و خرافات و محرمات ما أنزل الله بها من سلطان، فما عليه حينئذ الا أن يتخذ موقفا ايجابيا يتميز بالشحنة العاطفية و النظرة العقلانية حين يقبل على تعلم لغة بني قومه، و يتميز بالدافعية المعقولة حين يستعد لتعلم لغة الأعاجم. و عليه في كلتا الحالتين (حين يستعرب و يستعجم) أن يدرك بأن اتقان اللغة عمل شاق و طويل، و أن الانسان قد يقضي العمر كله من غير أن يحيط بجزء يسير من لغته القومية، ناهيك باللغة الأجنبية التي يستلزم اتقانها المثابرة في الجهد و ادمان المطالعة لكيلا تفوته لوبيئاتها و دقائق معانيها.

و يبدو لي أن مواكبة العصر و مجابهة التحدي التكنولوجي يستلزم كل منهما

(1) إشارة الى البيت الذي يقول فيه أبو الطيب :

و شغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

تحقيق مطلبين عسيرين هما : الاعراب و التعريب و هما صنوان متلازمان ، لا غنى لأحدهما عم الآخر، فالاعراب هو نقل ما في الداخل الى الخارج . أما التعريب، فهو نقل ما في الخارج الى الداخل، و بذلك يحقق المرء نوعا من التكيف اللغوي المنسجم. و هكذا فالتربية النظامية و الانظامية ينبغي أن تساعد المتعلم لكي يستعرب أي لكي يحقق العروبة في شخصيته ، و يتمكن من الاعراب عن ذاته و ايصال أفكاره و مشاعره الى الآخرين لأن المشاعر و الأفكار، اذا ما بقيت في طي الكتمان فانها في حكم العدم . و من جهة أخرى، فهذه التربية ينبغي أن تأخذ بيد المتعلم لكي يستعجم ، و يطلع على روائع التراث العالمي، و يستفيد من التقدم التكنولوجي الذي تطالب به و تطمح اليه الدول النامية .